

الدين والدولة والدنيا والآخرة في الإسلام

يقول بعضنا - في سبيل بيان فضائل الإسلام - إنه دين ودنيا ، أو دين ودولة ، ولكن هذا القول تعوزه الدقة ، وينأى عن الحق . فليس في الإسلام عنصران يتناظران ، أحدهما الدين ، وثانيهما الدنيا ، أو أحدهما الدنيا والثاني الآخرة ، فالعلاقة بين الدين والدنيا ، كما قلت من قبل ، في الإسلام من أطف العلاقات ، وأخفاها على غير المؤمنين بالسلم ، المدركين لجوهر أحكامه . فالإسلام محيط شامل ، يضم الدنيا والآخرة ، ويتحدث عن كليهما ، ويبين كيف يفضى أحدهما إلى الآخر ، وكيف يتصلان ، حتى لتكاد تعجز عن تبين الحد الفاصل بينهما ، وحتى لتكاد تقول إنهما شيء واحد ، مع أن الدنيا في حكم الدين عاجلة فانية ، والآخرة هي دار القرار . وإني لأدعوك أن تتأمل - بداءة ذي بدء - في جملة من الأحاديث ، أضعها تحت نظرك ، قبل أن تسترسل في الكلام :

روى عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك » .

وروى عن ثوبان قال : قال رسول الله : « أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه الرجل على دابته في سبيل الله عز وجل ، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله » . وقال أبو قلابة ، وهو أحد رواة هذا الحديث « وبدأ بالعيال ، وأى رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار ينفعهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم ؟ » .

قال رسول الله : « في وضع أحدكم (أى في مائه) صدقة » . فقال أصحاب رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ فقال رسول الله : « أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه مندر ؟ » قالوا :

نعم . قال : « كذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » وقال رسول الله : لمداد تريقه أقلام العلماء خير من دماء الشهداء .

وقال رسول الله أيضاً : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصوم ولا الصلاة » قيل فما يكفرها يا رسول الله ؟ قال : « الهموم في طلب العيش » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » ، و « علم ساعة خير من عبادة عشر سنين » .

فما الذي يستقر في يقينك ، وأنت تطالع هذه الأحاديث البينة الناطقة الدلالة ، الواحدة بعد الآخر ؟ ألا ترى معها ، أن الدنيا عند المسلمين ليست قليلة القدر ، ولا هي بالمصاب الذي لا حيلة في علاجه ، إلا بمحاولة نسيانه ، فالمسلمون مدعوون أن يحبوا حياتهم في أشد حالات التيقظ والإقبال ، ودنيا المسلمين هي دنيا الأصحاء العقلاء الأقوياء المشغولين بهوم العيش ، وهي دنيا الأناقة والنظافة والرقّة واللطف ، يكره فيها الصوت القبيح ، والرائحة الكريهة ، والجلسة المعوجة ، والحركة الجحافة ، والصيحة المزعجة .

وأهم من هذا كله ، أن دنيا المسلمين ، ليست خارج الدين ، ولا تقع بعيداً عن أحكامه ، ولا هي كيان قائم بذاته ، فهي محكومة به خاضعة له ، تتحرك على قواعده ، وتسير في نطاقه . والدين لا يدع منها صغيرة ولا كبيرة إلا ويصدر حكمها ، ويرسم مسارها ، ويبين غايتها ، وها قد رأيت أن رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، قد بين لنا أن العبادة في الإسلام ، ليست وحدها الصلاة والصوم ، وأن الهموم في طلب العيش تكفر من الذنوب ما لا يكفره الصيام ولا القيام ، وأن ثواب المرء يأتيه حتى في أخص علاقته ، وأبعدها عن تصور اتصالها بالثواب والأجر ، فكما « يثاب المرء على اللقمة إذا رفعها إلى في امرأته » كذلك يثاب الرجل إذ يفضي إلى زوجته ، ففي دنيا المسلمين ، يؤجر الإنسان على كل جهد وعمل وسعى وحركة .

ولكن كيف نوفق بين هذه العناية البالغة بالحياة الدنيا ، و برفع ثواب العمل فيها ، وتحصيل الرزق ، وطلب العلم ، والإتفاق على الأهل ، على ثواب الجهاد في سبيل الله ، بمعناه الخاص ؟ كيف نوفق بين هذه العناية الفائقة ، وبين آيات في كتاب الله كثيرة مثل قوله تعالى : (تريدون الحياة الدنيا والله يريد الآخرة) ، (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) ، (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟) .

والتوفيق بين هذه الأحكام التي تبدو متناقضة ، وهي متكاملة ، هو هذا النسج البديع الذي تفرد به الإسلام بين المذاهب والمبادئ ، فكل خطوة في الحياة الدنيا مباركة ونافعة ، إذا اتصلت بالمثل الأعلى ، الذي يسميه الإسلام « الآخرة » فالحياة الدنيا إذا انفصلت عن هذا المثل ، وأصبحت غاية عند الناس ، أصبحت ملعونة ، واستحق محبوها الشقاء والعذاب ، ولذلك تتداخل الدنيا والآخرة تداخلا يجعلهما كلا لا ينفصل ، فكل عمل في أولاهما ، له أثر في أخراهما ، فالعمل الدنيوي لا يحكم عليه في ذاته ، وإنما يحكم عليه بغاياته وأهدافه ، فقد يكون نافعاً وضاراً ومأجوراً أو منكراً في آن واحد ، مثال ذلك أن رجلاً مر على النبي ، فرأى أصحاب الرسول من جلده ونشاطه في الكسب والارتزاق ما جعلهم يتحدثون في . قالوا : يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله فقال : « إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً ، فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين ، فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله وإن كان يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان » .

فالدنيا هي الطريق المفضية إلى الآخرة ، والناس جميعاً ، لا يصلون إلى هذه الآخرة إلا عن طريق الدنيا ، وهذه الطريق — وإن كانت ممراً ومهراً تكسب لاتصالها بالآخرة من الفضل والقيمة ما يجعل فرضاً على السائرين فيها أن يجعلوها طريقاً نظيفة أنيقة فسيحة ، تحفها الأزهار والرياحين إلى عالم يسوده السلام الشامل ، يعيش فيه الناس

إخواننا متحابين ، (في جنة عالية لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة) ، (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ، إلا قِيلاً سلاماً سلاماً) .
 أما من يفضل الدنيا على الآخرة ، أى من فضل العمل ، أيّ ما كان صغيراً أو كبيراً ، نافعاً أو ضاراً فقد استحالت دنياه إلى شيء لعين ، واستحال هو وأمثاله إلى مجرمين يحبون العاجلة ، ويذرون الآجلة ، وهؤلاء يقال لهم إن ما عندكم ينغد وما عند الله باق ، أى أن (حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) .
 ولما كانت الدولة فرعاً من الدنيا ، فهي تأخذ حكمها ، فليس في الإسلام دين قائم بذاته ودولة تقوم إلى جواره ، فيتساويان أو يتناظران ، فالدولة في الإسلام هي فرع من دنيا المسلمين ، وهي كدنيا المسلمين خاضعة للدين ، ومنبثقة منه ، وهي ليست كدولة غيرهم ، فهي للدين تقوم ، وبالدين تحيا ، وله تسعى ، وفي سبيله تفتى ، وليس لها من أغراض الدول الأخرى وأطماعها شيء ، وهي لا تقوم إلا حين يؤمن المسلمون ويكتمل إيمانهم ، ثم يجتمعون في صعيد واحد ، وتظلمهم راية واحدة ، وبالجملة هي دولة الإسلام ، غاياتها غاياته ، أو غايات الحياة كما يريد الإسلام على الوجه الذى بيناه .

فدولة المسلمين أدنى مقاماً من عقيدتهم ، لأنها لا تعدو أن تكون وسيلة من وسائل هذه العقيدة ، وقد حققت هذه العقيدة ، بحيويتها الرائعة ، وجاذبيتها الآسرة ، ما لم تحققه أكثر دول المسلمين منذ خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، فقد انتشر الإسلام في شرق إفريقيا وغربها واتسعت رقعته في آسيا من أقصاها إلى أقصاها ، على يد رجال تجردوا من كل نفوذ ، انتشروا في الأرض يبتغون فضل الله ، فأدخلوا في الإسلام أمماً وشعوباً ، يتزايد عددها ، ورقعتها ، على عدد ورقعة ما فتحتة دول الإسلام جميعاً على تعاقب العصور .
 هذه دنيا المسلمين ، ودينهم ، ودولتهم .